(5) عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

هو أحد العبادلة والمكثرين رواية للحديث ، وهو حَبرْ[1] الأمة ، وترجمان القرآن . أتاه الله تعالى حكْمة الشيوخ ، وفقه العلماء في حداثة سنه ، ولما لا وهو الذي دعا له الرسول ﷺ بأن يؤتيه الله الحكمة ، ويفقهه في الدين ، ويعلمه التأويل ، وببركة هذا الدعاء كان ملجأ العلماء ، ومقصد السائلين ، وبغية الطالبين ، ومحج المسترشدين .

إنه ابن عم النبي ﷺ ، وكفي به من شرف . ولقد حاز من صفات المجد والشرف غير الإنتساب للبيت النبوي صفات العلم والتقى والورع والصحبة الشريفة هيا نقلب الصفحات ونقرب الصورة أكثر فأكثر ، ليتضح التفصيل بعد الإجمال .

***

لم تفلح محاولات مشركي مكة في النيل من رسول الله ﷺ ودعوته ، ولا من صحابته ، فهم يزدادون يوماً بعد يوما ، والدعوة تزداد انتشاراً بعد انتشار ، وأخيراً قرر المشركون أن يحصروا المسلمين في شعبْ[2] أبي طالب ، ولا يبيعونهم ، ولا يبتاعون منهم حتى يهلكوا جوعاً ، أو يسلَموهم محمداً ﷺ ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة ، ولكن الله تعالى فرج هذه الكربة عن المسلمين بعد ثلاث سنوات .

وفي أثناء هذا الحصار وُلد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قبل الهجرة بثلاث سنوات ، فأتى به إلى النبي ﷺ فحنكة بريقه ـ أي دلك أعلى فمه بريقه ـ وكان أول ما دخل جوفه ريق النبي ﷺ ، ومعه دخلت البركة والعلم والحكمة .

وما أن دخل سن التمييز حتى كان مرافقاً للنبي ﷺ ، وخادماً له ، يعد له ماء وضوئه ، ويصاحبه في سفره ، ويصلي معه إذا ما صلى ، ونال بركة دعاء النبي ﷺ

---

(1) الحبر : العالم .

(2) الشِّعب : انفراج بين جبلين .

له بأن يزيده الله علماً وفهماً ، فقد أعد له ماء وضوئه ذات يوم دون أن يطلب منه ، فلما سأل ﷺ : من وضع هذا ؟ قيل ، ابن عباس . فقال : « **اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل** » .

ومرة أخرى صلى خلف النبي ﷺ قيام الليل فأخذ بيده وجعله موازيًا له في الصف ، فلما كبَّر الرسول ﷺ ، وأقبل على صلاته تأخر ابن عباس رضي الله عنه إلى الوراء قليلاً . فلما فرغ النبي ﷺ من صلاته ، سأله : ما شأنك ، وما منعك أن تكون بازائي يا عبد الله ؟ !

فقال عبد الله رضي الله عنه : يا رسول الله ، ما ينبغي لأحد أن يصلي حذاءك أو يوازيك . فدعا له النبي ﷺ : « **اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب** » وكثيراً ما كان يوصيه ﷺ بما ينفعه في دنياه وآخرته ، فقد أوصاه ذات يوم وقال له : «**يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك لم يضروك بشيء إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف** » .

وهكذا ظل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ملازمًا لابن عمه رسول الله ﷺ حتى توفاه الله تعالى وتولى الخلافة من بعده أبوبكر الصديق رضي الله عنه .

* * *

حرص عبد الله بن عباس رضي الله عنهما على طلب العلم والمعرفة ، مهما كلفه ذلك من مشاق ، وذلك أنه بعد وفاة النبي ﷺ قال لفتى من الأنصار : هلم نطلب العلم ، ونسأل عنه أصحاب رسول الله ﷺ ، فإنهم اليوم كثير . فقال له الفتى : واعجبا لك يا ابن عباس أترى الناس يفتقرون إليك ؟ ! وبهذا كانت نظرة فتى الأنصار قاصرة والطموح لديه منعدم ، أما ابن عباس رضي الله عنه فحب العلم تملّك منه ، والأخذ بالأسباب دفعه إلى أن يسأل ويسأل ، حتى أنه كان يبلغه الحديث من أحاديث رسول الله ﷺ عند رجل فيأتي بابه وقت القيلولة [1] ، ويجلس عنده ،

---

(1) وقت القيلولة : منتصف النهار .

والريح تضرب وجهه بترابها ورمالها ، وما يصرفه ذلك حتى يخرج الرجل فيراه فيقول له : يا ابن عم رسول الله ، ما جاء بك ؟ هلا أرسلت إليّ فآتيك . فيجيبه : لا أنا أحق أن آتيك فاسألك عن الحديث والعلم .

والعجيب أن فتى الأنصار عاش حتى رأى الناس يجتمعون حول ابن عباس رضي الله عنه يتعلمون منه ، فقال وهو يشير إليه : هذا الفتى كان أعقل مني .

وبلغ من علم ابن عباس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يستشيره في المعضلات [1] مما دعا بعض الصحابة إلى عتاب عمر رضي الله عنه ، فقال لهم : إنه فتى الكهول ، له لسان سؤول ، وقلب عقُول .

ثم دعاه ودعاهم يوماً ليريهم علمه وفضله ، وسألهم عن تفسير سورة النصر ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [النصر 1] فقال بعضهم : أمر الله نبيه إذا رأى الناس يدخلون في دين الله أفواجا أن يحمده ويستغفره .

فوجه عمر رضي الله عنه خطابه إلى ابن عباس رضي الله عنه : يا ابن عباس ، تكلم ، فقال : أعْلَمَ الله رسوله ﷺ متى يموت ، أي فهي علامة موتك ، فاستعد ، فسبح بحمد ربك واستغفره . ومع سعة علمه ، وشرف نسبه ، وسمو مكانته كان رضي الله عنه متواضعاً يعرف لأصحاب رسول الله ﷺ قدرهم ومكانتهم ، فقد رأى ذات يوم زيد بن ثابت رضي الله عنه يريد أن يركب دابته ، فأسرع إليه وأمسك بركابها [2] .

فقال زيد رضي الله عنه : لا تفعل يا ابن عم رسول الله ، فقال ابن عباس رضي الله عنه : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ، فتناول زيد يده فقبلها ، وقال له : وهكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

* * *

لم يكن ابن عباس رضي الله عنه عالمًا بأمور الدين والفقه فقط ، بل بحديث رسول الله ﷺ والشعر العربي وآدابه ، والقضاء وأحكامه ، وأيام العرب وأخبارها ،

---

(1) المعضلات : جمع معضلة وهي المسائل الصعبة .

(2) الرّكاب : السرج الذي توضع فيه الرجل .

والقبائل وأنسابها ، وما سأله سائل يوما عن شيء إلا وأجابه بما علمه الله إياه ، وفتح به عليه .

يروى أحد التابعين فيقول : لقد رأيت من ابن عباس رضي الله عنهما مجلساً لو أن جميع قريش فخرت به لكان فخراً لها . لقد رأيت الناس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق ، فما كان أحد يقدر على أن يجيء ، ولا أن يذهب من شدة الزحام يقول الرجل : فدخلت عليه فأخبرته بالناس ، ومكانهم على بابه .

فقال لي : ضع لي وضوءاً ، ثم توضأ فجلس وقال : أخرج للناس ، وقل لهم : من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه والمراد منه فليدخل . فخرج الرجل وأخبرهم ، فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة . فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر . وخرج الناس فقال لصاحبه : أخرج وقل للناس : من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله فليدخل .

فدخل الناس حتى ملأوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبره به وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر . وخرج الناس . فقال لصاحبه : اخرج وقل من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقه فليدخل . فدخل الناس حتى ملأوا البيت والحجرة . فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله . وخرج الناس . فقال لصاحبه : أخرج وقل من أراد أن يسأل عن الفرائض [1] وما اشبهها فليدخل . فدخل الناس حتى ملأوا البيت والحجرة . فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله . وخرج الناس .

فقال له : اخرج وقل من أراد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل . فدخل الناس حتى ملأوا البيت والحجرة ، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله .

وليس لنا إلا القول بأنه علم غزير ، وثقافة متنوعة ، ببركة دعاء النبي ﷺ له يوم أن دعا له بالفقه في الدين ، وتعليم التأويل .

---

(1) علم الفرائض : علم المواريث .

ومع العلم الغزير كانت لديه الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، والحوار الذي يقود إلى الصواب ، ويأخذ بأيدي التائهين والمتخبطين إلى طريق الحق ، وقد حدث ذلك مع خصوم الإمام على بن أبي طالب رضي الله عنه .

* * *

تولى الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه على بن أبي طالب رضي الله عنه ، وحدث ما حدث بينه وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، وترتب على ذلك خروج طائفة عن طاعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه سموا بالخوارج ، فقاتلهم وقاتلوه ولما كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وعلى بن أبي طالب رضي الله عنه حريصين على دماء المسلمين طلب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من أمير المؤمنين أن يأتى القوم ويحاورهم ، وقال له : ائذن لي يا أمير المؤمنين أن آتي القوم وأكلمهم . فقال على رضي الله عنه : إني أخاف عليك منهم . فقال : لا تخف .

وذهب إليهم ابن عباس رضي الله عنه محاوراً ، فوجد أنهم يأخذون على الإمام على رضي الله عنه ثلاثة أمور .

أولها أنه حكَّم الرجال في دين الله بأن قبل أن يحكم بينه وبين معاوية كلاً من أبي موسي الأشعري رضي الله عنه ، وعمرو بن العاص رضي الله عنه ، والله يقول : ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ** ﴾ [الأنعام : 57]

وثانيهما أنه قاتل عائشة ومعاوية ، ولم يأخذ غنائم ولا سبايا ، فإن كانوا كفاراً فقد حلت له أموالهم ، وإن كانوا مؤمنين فقد حرمت عليه دماؤهم .

وثالثها أنه محا عن نفسه صفة أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين .

وبعد أن استمع ابن عباس رضي الله عنه لأقوالهم ومآخذهم ، استعان بالله وحمده ، وقال لهم : أرأيتم إن اسمعتكم من كتاب الله تعالى ، وحديث رسوله ﷺ مما لا تنكرونه ، وفيه تفنيد [1] أرائكم ، وبطلان حججكم أفترجعون عما أنتم فيه ؟

---

(1) تفنيد : بطلان .

فقالوا: نعم . قال : أما قولكم أنه حكّم الرجال في دين الله ، فالله تعالى يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة : 95] أفحكم الرجال في حقن دماء المسلمين أم حكمهم في أرنب ثمنه ربع درهم ؟!

قالوا : بل في حقن دماء المسلمين . وسقط المأخذ الأول .

ثم قال : أما قولكم إن عليا قاتل ولم يَسْبِ [1] ولم يغنم ، أفكنتم تريدونه أن يسبي أمكم عائشة ؟ فإن قلتم نعم كفرتم ، وإن قلتم أنها ليست بأمكم كفرتم أيضاً ، فالله تعالى يقول : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب : 6] فلم يجد القوم أمامهم إلا أن يقولوا : خرجنا من هذه أيضاً . .

وسقط المأخذ الثاني . . فاستأنف ابن عباس رضي الله عنه حواره ومناظرته أما قولكم إن عليًا قد محا عن نفسه صفة أمير المؤمنين ، فإن رسول الله ﷺ وقت كتابة صلح الحديبية ـ وكان الكاتب عليًا ـ كتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقال مبعوث قريش سهيل بن عمرو ـ وكان يومئذ مشركاً ـ لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله ، فنزل رسول الله ﷺ عند طلبهم ، وكتب محمد بن عبد الله وبهذا سقط المأخذ الثالث ، والمآخذ كلها بفضل الله تعالى .

ثم بفضل المحاورة الرائعة والمناظرة القوية التي هوت بأهواء أهل الزيغ [2] .

وكان من ثمرة هذه المحاورة أن عاد أكثرهم إلى الحق والصواب .

عاش عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يزكي عن علمه بنشره بين الناس ، ويفسر كلام الله تعالى تفسيراً يستولي على القلوب والأذهان ، حتى أن بعضهم قال : لقد فسر ابن عباس سورة النور لو سمعت هذا التفسير الروم وفارس لأسلمت ، وبجوار هذا العلم كانت العبادة الدائمة ، والمشي في حاجة اخوانه ، حتى لو اضطره ذلك إلى الخروج من معتكفه ، فقد كان معتكفاً ذات يوم في مسجد

(1) السبايا : النساء الأسيرات .

(2) الزيغ : الميل عن الحق .

رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل وطلب منه أن يأتي معه لرجل آخر له عليه دين . فخرج ابن عباس رضي الله عنه من المسجد فقال له الرجل : أنسيت ما كنت فيه من الإعتكاف ؟! قال رضي الله عنه : لا ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من مشى في حاجة أخيه ، وبلغ فيها كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق كل خندق أبعد ما بين الخافقين** » [1] .

* * *

مضى عصر الخلفاء الراشدين وجاء عصر الدولة الأموية ، وحدثت المعارك بين الحسين بن علي رضي الله عنهما ويزيد بن معاوية ولما أراد الحسين الخروج إلى العراق نصحه ابن عباس رضي الله عنه بعدم الخروج ، خوفاً عليه من القتل ، وتعلق به ، واستماته [2] للحيولة دون ذلك .

ولكن الحسين رضي الله عنه رفض النصيحة وذهب إلى العراق وخذله اتباعه فاستشهد في كربلاء يوم عاشوراء في السنة الحادية والستين بعد الهجرة ، فحزن ابن عباس رضي الله عنه عليه حزناً شديداً . .

ومضت السنوات بعبد الله ابن عباس رضي الله عنهما حتى أوصلته إلى سن الحادية والسبعين ، وفيها لبى نداء ربه في السنة الثامنة والستين للهجرة بعد أن ملأ الأرض علمًا وفقهاً وحكمة وتفسيراً وحديثاً . كانت وفاته في مدينة الطائف وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً .

دفن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة ، وترجمان القرآن ، وأثناء دفنه كان صوت القرآن الكريم يعلو ويعلو وهو يردد . . ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾

[الفجر : 27ـ30] .

---

(1) الخافقين : المشرق والمغرب .

(2) استماته : ألح عليه باحرار شديد .

*** من فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما**

(1) عن ابن عباس رضي الله عنه قال : ضمني النبي ﷺ إلى صدره ، وقال : « **اللهم علمه الحكمة وفي رواية اللهم علمه الكتاب** » رواه البخاري .

(2) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : وضعت وضوءاً [1] للنبي ﷺ فلما خرج قال : من وضع هذا ؟ قيل ابن عباس . فقال ﷺ : « **اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل** » رواه الإمام أحمد وصححه الألباني .

(3) سئل عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن شيء ، فقال : سل ابن عباس فإنه اعلم من بقي بما أنزله الله على محمد ﷺ .

* * *

(1) وَضُوء : ماء للوضوء .